ولم اقض حق العلم ان كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما

وابو بكر الخوارزمي على جلالة قدره وسعة علمه واعتداده بنفسه يعترف بالاخذ عنه بقوله :

واني و الزميك بالشعر بعدما تعلمته منك الندى والفواضلا

كملزم رب الدار اجرة داره ومثلك أعطى من طريق نائلا

كتبه

الصاحب من اكثر الوزراء تصانيف ولقد فاق استاذه ابن العميد من حيث عدد المؤلفات وهو لم يقتصر على فن بل الف في عدة انواع كالدين والتاريخ واللغة والادب والاخبار ولو سلمت كتبه من الضياع لكانت مجموعة قيمة تضاف الى المكتبة العربية ولكن القسم الاعظم منها مفقود او لا يعلم مكان وجوده وما بقي لا يزال مخطوطاً في دور كتب الشرق والغرب ولم يطبع منها الا رسالة واحدة سيأتي الكلام عليها وفصول من رسائله ومقطعات من شعره مبثوثة في كتب الادب والتراجم على سبيل الاختيار والتمثل والاستشهاد. وهذه اسماء كتبه :

١ — كتاب الوقف والابتداء وهو من اوائل مصنفاته ولعله اولها قال الانباري في طبقات الادباء : يحكى عن الصاحب انه لما صنف كتاب الوقف والابتداء كان في عنفوان شبابه فارسل اليه ابو بكر ابن الانباري وقال له انما صنفت كتاب الوقف والابتداء بعد ان نظرت في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك فقال الصاحب للرسول : قل للشيخ نظرت في النيف وسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك ايضاً .

٢ — المحيط في اللغة وهو معجم لغوى ذكر ياقوت في معجم الادباء انه في عشر مجلدات وذكر صاحب كشف الظنون انه في سبعة مجلدات وانه كثير اللفظ قليل الشواهد . وفي فهرس دار الكتب المصرية ان الجزء الثالث منه موجود فيها وهو مخطوط مخروم واول مافيه من حرف الفاء وينتهي الى اول حرف الزاي وللمحيط منزلة عظيمة لانه من اقدم المعاجم اللغوية . وهذا مثال منه مأخوذ عن الجزء المحفوظ في دار الكتب المصرية ومنه تتبين طريقة المؤلف في الترتيب :

حرف الذال

باب المضاعف

الذال والراء

ذَرَّ الذَّرُّ صغار النمل والواحدة ذَرَّة ومصدر ذررت الملح على الخبز والدواء اليابس في العين واسم ذلك الدواء الذَّرور والذُّرارة ما تناثر من الشيء الذي تذره والذَّريرة فتات قصب من قصب الطيب والذُّرِّيَّة فُعْلِيَّة من ذررت لان الله ذرَّهم في الارض ذرّاً والجميع الذراري ويقال ذُرِّية وقريء ذرية من حملنا مع نوح بتخفيف الراء وذرِّية وذَرِّي السيف فرنده والذَّرِيّ السيف الكثير الماء والذُّرور ذُرور الشمس وهو اول طلوعها وسقوط ضوئها على الارض وذرّ قرن الشمس طلع ورجل ذَرْذَارٌ وثرثار في كثرة الكلام بمعنى وذارَّت الابل عن الماء ذراراً ومذارّة اذا ابت ان تشرب واذرورى بطنه وهو ان يمتد صفاقه وتنحدر سرته ·

رَذَّ الرَّذاذُ مطر كالغبار واحدتها رذاذة ويوم مرِذٌّ وأَرَذَّتِ السماء تُرِذُّ إرذاذاً وأرذَّتِ العين بمائها اي اسالته وكذلك السقاء ·

الذال واللام

ذَلَّ الذِلُّ مصدر الذلول ذلَّ يذِلُّ ذِلاً وهو المنقاد لك من الدواب وذِلُّ الطريق ما وطيُ منه . والكرم اذا دليت عناقيده قد ذلَّلَ تذليلا وكذلك اذا سويت عذوقه . والذُّلُّ والذِلَّة مصدر الذليل ذَلَّ يَذِلُّ والذُلاَّنُ الذابل والقوم ذِلَّةٌ وأَذِلَّةٌ وأَذِلاَّءُ ورجل ذَلولِيٌّ حسن الخلق دميث وجمعه ذلوليون . والذِلذِل اسفل القميص والقبا ونحوه وهو الذُلذل ايضاً والجميع الذلاذل . وجاءت الامور على أذْلالها اي على وجوهها ومجاريها . ودعه على أذْلاله اي على حاله واطو الثوب على أذْلاله اي على مبخره اي غره وأذلال من الناس وذلاذل منهم وذُلَيْذِلاتٌ وذُلذلات اي اواخر وقليل من الناس . والتَّذَلْذُل الاضطراب والاسترخاء واذْلَوْلى اسرع .

لَذَّ اللذُّ واللذيذ في الشراب يلَذُّهُ لذاذة واللذات جمع اللذة واللذ النوم والأَلِذَّةُ الذين يأخذون لذتهم واللذلاذ الخفيف السريع .

الذال والنون

ذَنَّ ذَنَّ الفحل يَذِنُّ ذَنِيناً اذا سال من انفه ماء خاثر ورجل أَذَنُّ يسيل انفه وهو ذُنان الانف وذَنِينُهُ والذُنانِيُّ الرجل الذي يسيل منه الذُنانُ والذنَّاء المرأة التي لا ينقطع حيضها ، وجرح لا يزال يَذِنُّ ، والذُؤنون نبات ينبت امثال العراجين من نبات الفطر الواحدة ذؤنونة ، وخرج القوم يَتَذَأْنَنُون اي يأخذون الذانين ، والذُنانة الحاجة والطلبة ما ذُنانتك وعليه ذنانات من دين اي ذُبابات وذَنينة من خير وذُنانة وذانَّة اي بقية ، وقطع الله ذانَّ فلان وذانته اى ماذنَّ منه وسال من عرقه او من ... والمُذانَّة العود في تبخر قضاء الحاجة والتردد فيه وقد ذانتهُ وذنَّ في الامر يَذِنُّ والذناذن اسفل القميص كالذلاذل واحدها ذنذِن

٣ - ديوان رسائل الصاحب : ذكر ابو حيان التوحيدي انه كلف ان ينسخ من رسائل الصاحب ثلاثين مجلدة وذكر ياقوت في معجم الادباء ان ديوان رسائل الصاحب عشر مجلدات ومهما يكن

عدد المجلدات فان هذا الديوان مفقود ولكن المختار من هذا الديوان الذي سيأتي الكلام عليه يعطينا صورة مصغرة عنه .

٤ — المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد : لم يعلم جامعه وهو صورة مصغرة ولكنها تامة عن ديوان رسائل الصاحب لان جامعه اختار من جميع ابواب الديوان ولم يترك منها بابا كما ذكر في المقدمة . منه نسخة في دار الكتب المصرية مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة مخطوطة بخط ابي الحسن علي بن احمد ابن زكريا المعروف بابن الشصاص البغدادي فرغ من كتابتها بهمذان في شهر رمضان سنة ٥٥٧ وهي محفوظة بالمكتبة الاهلية في باريس وعدد صفحاتها ٢٢٩ صفحة في كل صفحة ٢٣ سطراً وهي على حسن خطها لا تخلو من بعض الاغلاط ونحن ننقل هنا مقدمة الكتاب لانها بمثابة فهرس له وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرت اطال الله بقاءك شديد حرصك على تحفظ بعض رسائل الصاحب الجليل كافي الكفاة رضي الله عنه واحتياجك الى من تستعين به على جمع ذلك مبوبا مختاراً الاشف فالاشف

منه فوعدتك القيام لك به وجردت له عنايتي وخرجت من كل باب من ابواب ديوان رسائله العشرين عشر رسالات ليخف حجم هذا المجموع ولا يعتاص تحفظه وقد رجوت ان يقع ذلك منك موضع الوفاق والله ولي التوفيق والارشاد ·

فالباب الاول في البشائر والفتوح ·

والباب الثاني في العهود ·

والباب الثالث في الامان والايمان والموافقات والمناشير ·

والباب الرابع في امر الحجيج والمصالح والثغور ·

والباب الخامس في الاستعطاف وما يجانسه ·

والباب السادس في اصلاح ذات البين وتهجين العقوق ·

والباب السابع في المدح والتعظيم ·

والباب الثامن في الذم والتهجين ومايجري مجراه ·

والباب التاسع في التهاني ·

والباب العاشر في التعازي ·

والباب الحادي عشر في الاخوانيات والمداعبات ·

والباب الثاني عشر في التشكر ·

والباب الثالث عشر في الاستزارة والتقريع ·

والباب الرابع عشر في التنصل والاسترضاء ·

والباب الخامس عشر في الشفاعات ·

والباب السادس عشر في توصية العمال بتجلب المال واظهار العفاف وحسن السياسة ·

والباب السابع عشر في الادب والمواعظ ·

والباب الثامن عشر في فصول وغرر وتوقيعات ودرر ·

والباب التاسع عشر في الفوارد وهي الكتب النادرة ·

والباب العشرون في الشوارد والكتب المختلفة المعاني ·

وستطلع على فصول منه في آخر هذه الرسالة · ومن اماني ان انشره برمته على حدة

٥ — كتاب الكافي في الرسائل : وهو غير ديوان رسائله ويغلب على الظن انه في اصول الكتابة ورسومها وفنون الرسائل ولعله الكتاب الذي عرّفه صاحب كشف الظنون بقوله : رسالة ابن عباد في فنون الكتابة والرسائل رتبها على خمسة عشر باباً · وقد وهم المرحوم جرجي زيدان فجعل كتاب الكافي وديوان رسائل الصاحب كتابا واحداً فقال : وللصاحب في

الرسائل كتاب الكافي منه منتخبات خطية في مكتبة باريس [1] مع ان تلك المنتخبات هي مختار من ديوان رسائله كما ذكر من قبل لا من كتاب الكافي .

٦ — الكشف عن مساوئ شعر المتنبي : الباعث للصاحب عَلَى تأليف هذه الرسالة هو ان المتنبي لما زار ابن العميد في ارجان ومدحه طمع الصاحب في ان يمدحه المتنبي ايضاً فكتب اليه يستدعيه الى اصبهان ويبذل له مشاطرته جميع ماله فلم يجبه المتنبي على كتابه كبراً وتيهاً لان الصاحب كان في عنفوان شبابه ولم يستوزر بعد . فاستاء الصاحب والف تلك الرسالة وتتبع فيها سقطات المتنبي وزلاته وفيها كثير من الغمز واللمز والتهكم والخامل واسمها ينبئ عن غاية مؤلفها فانه لم يعمد الى الحكم في شعر المتنبي جيده ورديئه بل عمد الى اظهار السخيف دون غيره بطريقة تنم على التشفي . والمآخذ التي اخذها الصاحب على المتنبي واردة في اكثر الاحيان ولكنها لا تعدو انتقاد الالفاظ والصنعة البديعية والنظرات القصيرة في استكناه روح الشاعر

---

(١) تار بخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٧٥

على ان الصاحب كان يأخذ من معاني المتنبي في شعره ونثره كقوله :

لبسن برود الوشي لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

فانه اغار فيه على قول المتنبي :

لبسن الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا

وقوله من رسالة له : « وقد اثنى عليه ثناء لسان الزهر على راحة المطر » وهو من قول ابي الطيب :

وذكي رائحة الرياض كلامها تبغي الثناء على الحيا فيفوح

وغير ذلك كثير سيأتي في موضعه . ولما الف الصاحب هذه الرسالة الف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه فجود فيه كثيراً . ورسالة الكشف عن مساوئ شعر المتنبي طبعتها مكتبة القدسي في ست وعشرين صفحة وهي الاثر الوحيد المطبوع على حدة من آثار الصاحب .

٧ - الاقناع في العروض : منه نسخة مخطوطة في مكتبة باريس الاهلية مكتوبة سنة ٥٥٩ ونسخة اخرى في دار الكتب المصرية عرفها فهرسها بما يلي : « اوله بعد البسملة :

العروض ميزان الشعر به يعرف مكسوره من موزونه الخ ضمن مجموعة مخطوطة بخط قديم» . واليك مثالا منه مأخوذاً عن تلك النسخة:

الطويل له عروض واحدة وثلاثة اضرب واصله فعولن مفاعيلن اربع مرات البيت الاول عروضه مقبوضة والمقبوض ما سقط خامسه الساكن كان اصله مفاعيلن فحذفت ياؤه فبقي مفاعلن وضربه سالم صحيح والسالم ما سلم من الزحاف والصحيح ما صح من الضروب وهو :

ابا من	ذر نكانت	غرورن	صحيفتي [1]
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

ولم اع	طهبططو	عمالى	ولا عرضي
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن

البيت الثاني عروضه مقبوضة وضربه مقبوض وهو :

ستبدي	لك الايا	ما كن	تجاهلا [2]
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

---

(١) ابامنذر كانت غروراً صحيفتي ولم اعطه بالطوع مالي ولاعرضي

(٢) ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وبـأتي	كبـالاخبا	ر من لم	تزودي
فعـولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

البيت الثالث عروضه مقبوضة وضربه محذوف والمحـذوف ما سقط من آخره سبب خفيف كان اصله مفاعيلن فحذف من آخره لن فبقي مفاعي فنقل الى فعولن وهو :

اقيموا	بنينعـما	نعننـا	صدوركم (١)
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

والـلا	تقيمواصا	غرين	روؤسـا
فعـولن	مفاعيلن	فعولن	فعولـن

زحافه يجوز في كل فعولن الا التي في ضرب البيت الثالث وهو ستبدي لك الايام ان تسقط نونه ويبقى فعول ويسمى مقبوضاً ويجوز في كل مفاعيلن الا التي في الضرب الاول ان تسقط ياؤه ويبقى مفاعلن ويسمى مقبوضاً وان تسقط نونه ويبقى مفاعيل ويسمى مكفوفاً والمكفوف ما سقط سابعه الساكن وبين ياء مفاعيلن ونونها معاقبة والمعاقبة ان يجوز ثبوت الحرفين معاً ولا يجوز سقوطهما معاً . ويجوز في فعولن في ابتداء ابيات الطويل

(١) اقيموابني نعمان عنا صدوركم والا تقيموا صاغرين روؤسا

الخرم وهو حذف اول متحرك في الوتد المجموع في اول البيت فاذا خرم فعولن بقي عولن فنقل الى فعلن ويسمى اثلم فان خرم وقد صار فعول بقي عول فنقل الى فعل وسمى اثرم واذا سلم الجزء من الخرم سمي موفوراً [و] الموفور في فعول خاصة ·

بيت المقبوض

اتطلب من اسود بيشة دونه ابو مطر وعامر وابو سعد

تقطيعه :

اتطـل	بمن اسو	دبيش	تدونـه
فعولـن	مفاعلن	فعول	مفاعلن

ابـو م	طر نوعا	مر نو	ابو سعد
فعـول	مفاعلن	فعول	مفاعلن

بيت الاثلم المكفوف

شاقتك احداج سليمى بعاقل

فعينـاك للبين تجودان بالدمع

تقطيعه

شاقت	كاحداج	سليمى	بعـاقلن
فعلن	مفاعيل	فعولن	مفاعلن

فعينـا	كللبين	تجودا	نبددمعي
فعولن	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن

بيت الاثرم

هاجك ربع دارس الرسم باللوي لاسماء عفّى آيه المور والقطر

هاج	كر بعندا	رسردس	مبللوى
فعلن	مفـاعيلن	فعولن	مفاعلن

لا سما	ءعففاا	يهلمو	رولقطر
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن

٨ — كتاب الزيدية ·

٩ — كتاب الاعياد وفضائل النوروز ·

١٠ — كتاب الامامة في تفضيل علي بن ابي طالب وتصحيح امامة من تقدمه ·

١١ — كتاب الوزراء ·

١٢ — كتاب عنوان المعارف في التاريخ ·

١٣ — كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته ·

١٤ — كتاب العروض الكافي : هكذا سماه ياقوت في معجم الادباء ولعله كتاب الاقناع الذي سبق الكلام عليه ·

١٥ — كتاب جوهرة الجمهرة : هو مختصر كتاب الجمهرة لابن دريد والجمهرة من أصول كتب اللغة ودواوينها الفه ابن دريد ببلاد فارس لابني ميكال واتبع في ترتيبه ترتيب كتاب العين للخليل بن احمد وسماه بالجمهرة لانه اختار فيه الجمهور من كلام العرب .

١٦ — كتاب نهج السبيل في الاصول .

١٧ — كتاب اخبار ابي العيناء .

١٨ — كتاب نقض العروض .

١٩ — كتاب تاريخ الملك واختلاف الدول .

٢٠ — كتاب الزيدين .

٢١ — ديوان الصاحب ابن عباد : منه نسخة مخطوطة في مكتبة ايا صوفيا بالقسطنطينية وكذلك قصيدتان من شعره في مكتبة برلين .

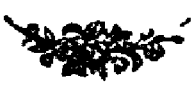

اسلوبه وخصائصه

لم ينقص الصاحب شيءٌ من ادوات الاديب الكسبية فهو غزير العلم جم الادب واسع الرواية عالي الثقافة حسن المحاضرة قضى حياته في الطلب والمذاكرة والانشاء والتأليف . ولكن شدة عنايته بتلك الادوات الكسبية ادخلت الضيم على اعظم عنصر في ادبه وهو الطبع وما ينتج عنه من ابتكار في المعنى واستقلال في الرأي .

فحسن اللفظ ومتانة التركيب ورنين الاسجاع وجمال الاستعارة ولطف التشبيه ولباقة التورية ومحكم الاستشهاد وما الى ذلك من ادوات التزويق والخلابة غاية في رأي الصاحب لا واسطة ومن اعتبر الادب كذلك قلت معانيه وان كان فكره مولدا وضعف عمل تفكيره وان كان صحيحا واضطر الى استعارة معاني غيره حتى اذا نتج الله عليه بمعنى جديد ابلاه بكثرة ترديده .

لغة الصاحب لغة عذبة مأنوسة لا غريب فيها ولا مستكره شأن لغة جمهرة الكتاب في عصره فانهم كانوا يتوخون السهولة

والوضوح في المفردات اكثر من الشعراء ، وادباء المشرق خاصة (والمراد بالمشرق بلاد العجم) معروفون بالترقيق قال ابو تمام الطائى :

قد ثقفت منه الشآم وسهلت منه الحجاز ورققته المشرق

فالصاحب على طول باعه في علم اللغة وحفظه لغريبها لا تكاد تجد له لفظة وحشية في رسائله او في شعره وذلك من مقتضيات الصنعة في اختيار الالفاظ . ولغته في شعره الين منها في نثره وقد يسف في بعض الاحيان حتى يأتي بما يشبه كلام العامة كقوله وان كان فيه لزوم ما لا يلزم :

يا ابا القاسم قل لي قل لماذا لا تزور
كنت قد قدمت وعداً فاذا وعدك زور

وهكذا فان شدة حرصه على السهولة تورده احيانا موارد الاسفاف . وما يروى عنه من الغريب والوحشي الذي كان يمتحن به الطارئين عليه من الادباء محمول على سبيل التحدث بنعمة العلم واظهار البراعة في الحفظ والرواية ولكنه لم يستعمله في نثر او شعر جريا على طريقة استاذه ابن العميد في انتقاء الالفاظ العذبة في الذوق الخفيفة على السمع . قال

الصاحب في الكشف عن مساويء المتنبي : « ما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته وينقده نقد جهابذته غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل ابن العميد فانه يتجاوز نقد الابيات الى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن » وقال ايضا ينعي على ابي الطيب المتنبي استعماله الغريب : « واطم ما يتعاطاه التفاصح بالالفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء او غذي ابن ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر » .

. . . . .

للصاحب ولوع بالسجع سبق به جميع من تقدمه من الكتاب قال ابو حيان التوحيدي : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد قلت لابن المسيبي اين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو انه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ويحتاج من اجلها الى غرم ثقيل وكلفة صعبة وتجشم امور وركوب اهوال لما كان يخف عليه ان يفرج عنها ويخليها بل يأتي بها ويستعملها

ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها »

وقال ابو الفتح ابن العميد : «خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجها الى اصفهان ومنزله ورامين وهي قرية كالمدينة فجاوزها الى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء الا ليكتب الينا كتابي هذا من النوبهار يوم السبت نصف النهار »

وقال صاحب معاهد التنصيص : عزل الصاحب عاملا بقم فكتب اليه : ايها العامل بقم قد عزلناك فقم .

وقد انتقد ضياء الدين ابن الاثير وهو من المغرمين بالسجع سجع الصاحب لان معانيه كانت تبعا لاسجاعه اي انه كان يبذل المعنى في سبيل السجع قال فى المثل السائر : «واعلم ان للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة فان عري الكلام المسجوع منه فلا يعتد به اصلا وهذا شيء لم ينبه عليه احد غيري ... . والذي اقوله في ذلك هو ان تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه .... وجل كلام الناس المسجوع جار عليه واذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابي وابن

العميد وابن عباد فانك ترى اكثر المسجوع منه كذلك . الى ان قال فمن ذلك (سجع الصاحب) ما ذكره في وصف مهزومين فقال: طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وباصلابهم نحورهم . وكلا المعنيين سواء . ومن كلامه : لا تتوجه همته الى اعظم مرقوب الا طاع ودان ، ولا تمتد عزيمته الى انجم مطلوب الا كان واستكان . وكل هذا الذي ذكره شيء واحد . وله من كتاب : وصل كتابه جامعا من الفوائد اشدها للشكر استحقاقا ، واتمها للحمد استغراقا ، وتعرفت من احسان الله فيما وفره من سلامته ، وهناه من كرامته ، انفس موهوب ومطلوب ، واحمد مرقوب ومخطوب . وهذا كله متماثل المعاني متشابه الالفاظ »

ولم يقف غرام الصاحب بالصنعة عند السجع فحسب بل كان منقادا في اسلوبه الى الصنعة في كل جزء من اجزاء الجملة اعني انه لم يكن يقنع بتسجيع الفواصل بل كان يعنى بالمزاوجة بين اوائل الجملتين واواسطها فيأتي بالكلمة واختها واللفظه ولفقها حتى تكون أجزاء جملتيه سجعاً في سجع كقوله: لكنه عمد للشوق فاجرى جياده غراً وقرحاً ، واورى زناده قدحاً

فقدحاً . وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفاً ببلدتك، وتظلمه كلفاً باهل جلدتك . وقوله : اطع سلطان النهى دون شيطان الهوى . وقوله : الرأي اقومه احكمه وأشده أسده . وقريب من ذلك قوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه . وقوله في استهلال رسالة في تحذير العامة من الخوض في الاراجيف : (ان الله تعالى مع عظيم حكمته ، وفسيح رحمته ، واستغنائه عن الامم ماضيهـا وباقيها ، واستعلائه على الخلائق طائعها وعاصيها ، جعل لمواهبه فروضاً من الشكر من أقامها ، وعظم مشعرها ومقامها ، ارتبطها عليه ، وثبطها لديه ، ومن اساء جوارها راكباً هواه ، واخفى منارها ناكباً عن منحاه ، ارتجعها منه ، وانتزعها عنه ، وتركه مثلة للناظرين ، وعبرة للغابرين ، بذلك جرت سنته في الاولين ، وتقدمت معذرته الى الآخرين[1]) .

وهكذا فقد اربى على استاذه ابن العميد كثيراً في التزام احكام الصنعة .

كل ما مر بك من مظاهر التزويق والتنميق التي كانت

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٦٥ (مخطوط)

شائعة في كلام الصاحب لم تكن لتشفي غليله من الغرام بالصنعة اللفظية فبدا له أن يسن طريقة في التكلف غاية في الغرابة وذلك أنه نظم قصيدة في مدح آل البيت تبلغ سبعين بيتاً معراة من الالف اولها :

قد ظل يحرج في صدري من ليس يعدوه فكري

ثم عمل قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ففتح الباب لمن اتى بعده من ادباء الصنعة فجاروه زيادة ونقصاً وتفننوا في اللعب على الحروف فانشأ الحريري رسالتيه السينية والشينية والتزم حرف السين في كل كلمة من كلمات الاولى وحرف الشين في كلمات الثانية واربى عليه من اتى بعده فالتزموا الحروف المهملة في القصيدة من اولها الى آخرها وتشدد بعضهم فعين من الحروف المهملة عدداً لا يتجاوزه في القصيدة فسامح الله الصاحب وعفا عنه .

ولعل الذي اوحى الى الصاحب هذه الفكرة ما يروى عن واصل بن عطاء رأس المعتزلة من أنه كان يجتنب الراء في كلامه لانه كان يلثغ بها فاعجب الناس به واكبروا فصاحته فاحب الصاحب أن يشاطر واصلاً تلك المحمدة ويزيد عليه فاجتنب أكثر مما اجتنبه واصل ولكن كان شأن واصل كشأن المريض

الذي يجيد الحمية فيبدو لك صحيحاً وشأن الصاحب كالصحيح الذي يتمارض فيبدو مريضاً .

ولعل ما يروى عن قس بن ساعدة الايادي من أنه اول من قال في خطبه (أما بعد) اوحى الى الصاحب أيضاً أن يفتتح بعض رسائله بقوله (أما قبل) ليساهم الاوائل شرف سبقهم أيضاً فلقد كتب الى بعضهم تهنئة بتجدد نعمة (أما قبل [1] اطال الله بقاء سيدي فالحمد لله مولى النعم ومسدي المنح منه ابتداء الاحسان واليه مرجع الشكر آخر الزمان وصلى الله على النبي محمد وآله الاخيار وأما بعد فهنأ الله سيدي الموهبة التي ساقها اليه ومدّ رواقها عليه ....)

وقال في موضع آخر (... و بعد او قبل [1] فهذا الشريف حسن الهدى والستر جميل الطريقة والامر ...)

والصاحب مغرم بانواع البيان يكثر من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية كقوله : « نحن يا سيدي في مجلس غني الا عنك، شاكر لامنك، قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج، وفاحت مجامر الاترج، وفتقت فارات النارنج،

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٢٠ وص ١٨٩

وانطقت السنة العيدان، وقام خطباء الاوتار، وهبت رياح الاقداح، ونفقت سوق الانس، وامتدت سماء الند ....» وقد كان هذا النوع من البيان مستحسناً في عصر الصاحب قال ابو بكر الخوارزمي انشدني الصاحب نتفة له منها هذا البيت :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له يسمح بترياق ريقه

فاستحسنته جداً حتى حممت من حسدي له عليه ووددت لو أنه لي بالف بيت من شعري .

وله فصل آخر كل جمله تشبيهات وهو : نحن وحياتك في مجلس راحه ياقوت ونوره در ونارنجه ذهب ونرجسه دينار ودرهم يحملها زبرجد ....»

***

لو ترك الصاحب نفسه على سجيتها أو لو اقتصد في صنعته لرفد الادب باكثر مما رفده لان طبعه فياض وحسه دقيق وذوقه صحيح زد على ذلك سعة علمه وسمو ثقافته لذلك فاجوبته وتواقيعه وكل ما كان يقوله أو يكتبه بداهة أعلى طبقة مما كان يتكلف بصنعه قال ابو حيان التوحيدي : « كان الصاحب كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان قد نتف من كل أدب

شيئاً وأخذ من كل فن طرفاً والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس له من الجزء الآلهي خبر ولا له فيه عين ولا أثر وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ويقول الشعر وليس بذال[1] وبديهته غزارة وأمارويته نحوارة »· وكلامه الذي كان يقوله بداهة واجوبته وتواقيعه تدل على فصاحة ولسن وشدة عارضة مع أن اكثرها لا يخلو من الصنعة التي صارت كالطبع عند الصاحب فمن ذلك ما رواه بديع الزمان الهمذاني قال: لما ادخلني والدي الى الصاحب ووصلت الى مجلسه واصلت الخدمة بتقبيل الارض فقال لي يا بني اقعد كم تسجد كأنك هدهد · وقال ابو منصور البيع :دخلت يوماً على الصاحب فطاولته الحديث فلما اردت القيام قلت لعلي طولت فقال لا بل تطولت ·

وقال ابو حيان التوحيدي : كان ابن عباد ورد الري سنة ٣٥٨ مع مؤيد الدولة وحضر مجلس ابن العميد وجرى بينه

(١) لعل الصواب بذاك

و بين مسكويه كلام ووقع تجاذب فقال مسكويه دعني حتى اتكلم ليس هذا نصفة ، اذا اردت ان لا اتكلم فدع على فمي مخدة فقال الصاحب بل ادع فمك على المخدة . وطارت النادرة ولصقت وشاعت بين الناس و بقيت .

وقال ابو حسن العلوي الهمذاني الوصي : لما توجهت تلقاء الري في سفارتي اليها من جهة السلطان فكرت في كلام التقى به الصاحب فلم يحضرني ما ارضاه وحين استقبلني في العسكر وافضى عناني الى عنانه جرى على لساني: « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم» . فقال «اني لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون» . ثم قال مرحباً بالرسول ابن الرسول الوصي ابن الوصي .

وحبس الصاحب بعض عماله في مكان ضيق بجواره ثم صعد السطح يوماً فاطلع عليه فرآه فناداه المحبوس باعلى صوته « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فقال الصاحب : « اخسئوا فيها ولاتكلمون » .

وقال يوماً لبعض من تأخر عن مجلسه لعلة وجده : ما الذي كنت تشتكيه ؟ قال : الحمى قال : قه يعني الحماقة فقال وه يعني القهوة .

وقال بعض ندماء الصاحب : كنت يوماً بين يديه فقدم البطيخ فقلت لا مترك فقال بالعجلة لمترك و كنت اريد ان اقول لامترك للبطيخ فسبقني الى التبادر بهذا التجنيس

واستأذن عليه الحاجب يوماً لانسان طرسوسي فقال الطر في لحيته والسوس في حنطته .

وانفذ اليه ابن فارس من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال رد الحجر من حيث جاءك ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وامر له بصلة .

وقال لرجل رفع اليه قصة وهو يكثر الكلام : هذا رفع القِصص لا رفع القصص .

ودخل الى الصاحب رجل لا يعرفه فقال له ابو من ؟ فانشد الرجل :

وتتفق الاسماء في اللفظ والكنى كثيراً ولكن لاتلاقى الخلائق

فقال له اجلس يا ابا القاسم .

قال ابو الرجاء الاهوازي لما قدم علينا الصاحب في السنة التي جاء فيها نخر الدولة الى الاهواز مدحته بقصيدة قلت فيها :

الى ابن عباد أبي القاسم الصـ احب اسماعيل كافي الكفاة

فقال قد كنت والله اشتهي بان تجتمع كنيتي واسمي ولقبي واسم ابي في بيت . فلما انتهيت الى قولي فيها : « ويشرب الجيش هنيئاً بها »

قال يا ابا الرجاء امسك فأمسكت فقال :

ويشرب الجيس هنيئاً بهـا من بعد ماء الري ماء الصراة

هكذا هو ؟ قلت نعم ، قال احسنت ، قلت يامولاي احسنت انت ، عملت انا هذا في ليلة وانت عملته في لحظة .

ودخل عليه رجل فقال له من اين ؟ فقال من بنج ِده وهي بالفارسيه خمس قرى ، فقال له الصاحب يحمق من كان من قرية واحدة فكيف من كان من خمس قرى .

وسأل الصاحب أبا الحسين الربعي عن مسأَلة فأجاب جواباً اخطأ فيه فقال له اصبت فقبل الارض بين يديه شكراً فلما رفع رأسه قال عين الخطأ .

ورفع الضرابون من دار الضرب اليه رقعة في مظلمة مترجمة بالضرابين فوقع تحتها في حديد بارد .

وكتب عامل رقعة اليه في التماس شغل وفي الرقعة ان رأي مولانا ان يأمر باشغالي في بعض اشغاله فعل فوقع تحتها

من كتب لإشغالي لايصلح لأشغالي

وقال العتبي كتب بعض اصحاب الصاحب رقعة اليه في حاجة فوقع فيها ولما ردت اليه لم ير فيها توقيعاً وقد تواترت الاخبار بوقوع التوقيع فيها فعرضها على ابي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو الف واحدة وكان في الرقعة فان رأي مولانا ان ينعم بكذا فعل فاثبت الصاحب امام فعل الفا يعني افعل .

على انه كان يتقعر بعض الاحيان في احاديثه على سبيل التظرف وما يروى من ذلك مروي عن ابي حيان التوحيدي قال ابو حيان : دخل يوماً دار الامارة الفيرزان المجوسي في شيء خاطبه به فقال له : انما انت محش محش محش لا تهش ولا تبش ولا تمتش فقال الفيرزان ايها الصاحب برئت من النار ان كنت ادري ما تقول ان كان رأيك ان تشتمني فقل ما شئت بعد ان علم فان العرض لك والنفس لك فداء لست من الزنج ولا من البربر كلنا على العادة التي عليها العمل والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ولا من أهل دينك من أهل السواد وقد خالطنا الناس وما سمعنا منهم هذا النمط .

وقال ابو حيان : سمعته يقول وقد جرى حديث الابهرى المتكلم وكان يكنى ابا سعيد فقال : لعن الله ذاك الملعون المأبون المأفون جاءني بوجه مكلح وانف مفلطح ورأس مسطح وسرم مفتح ولسان مكبح فكلمني في مسألة الاصلح فقلت له اعزب عليك لعنة الله الابرج الذي يلزم ولا يبرح .

وقال ابو حيان : قال ابن عباد لشيخ من خراسان في شيء جرى والله لولا شيء لقطعتك تقطيعاً و بضعتك تبضيعاً ووزعتك توزيعاً ومزعتك تمزيعاً وجزعتك تجزيعاً وادخلتك في حرامك ثم وقف ساعة ثم قال جميعا .

* * *

بالرغم من كل القيود التي غل الصاحب بها نفسه فان الناظر في آثاره يلمح نفساً حساسة شاعرة تتطال من وراء الحجب الى جمال الطبيعة في شتى مظاهرها فتطرب لخرير المياه وتعشق لطف الازهار وتشمل بعبيرها كما ترتاع لمنظر الثلج وتخشع امام سعة الفضاء في الارض والسماء وما الى ذلك من مظاهر الطبيعة في جلالها وجمالها لذلك فقد اكثر

الصاحب من وصف الرياض والبساتين والازهار والرياحين والاشجار والفواكه والثمار واحوال الاجواء والانواء في نثره وشعره كقوله في باكورة خلاف قد نوّر: لتنوير الخلاف فضائل لا تحصى ، ومحاسن تطول ان تستقصى ، منها انه اول ثغر يبسم عنه الربيع ويضحك ، ودر يعقد على القضبان ويسبك ، ولتمايله ادكار بقدود الاحباب ، وتهييج لسواكن الاطراب ، وحمل اليّ قضيب منه وردانه متعادلة ، ولداته متقابلة ، فأنفذته مع رقعتي هذه اليك ، وسألت الله أن يعيده الف حول عليك ، وقلت :

وقضيب من الخلاف بديع مستخص باحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء علينا وسعى في جلاء وجه الربيع
وحكى من احب عرفاً وظرفاً واهتزازاً يثير ماء ضلوعي
رقة ما نظمت نحو بديع الـ ـمجدحاكى الربيع حسن صنيع

ولا محل هنا للاستشهاد باكثر من ذلك لأنه سيرد عليك كثير من مثله في الفصل الذي يحتوي على نصوص من كلامه في آخر هذه الرسالة وفيه وصف الشتاء والثلج والفلاة والرياض وما فيها من اشجار وانهار وازهار واطيار

والفواكه كالعنب والتين والثمار كالاترج والنارنج وما الى ذلك من الأشباه والنظائر .

* * *

قد يكون من توضيح الواضح الدلالة على شيوع الروح العربية والثقافة الاسلامية في أدب الصاحب ككثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف وايراد النكات الدالة على معرفة باحكام المذاهب والفرق والاستشهاد بامثال العرب والتمثل باشعارهم والاشارة الى اجوادهم وفرسانهم وشعرائهم وخطبائهم فكل ذلك ماثل في كلامه من ذلك العهد [1] الذي كتبه عن مؤيد الدولة الى القاضي عبد الجبار حين ولاه قضاء القضاة فلقد ختم كل فقرة منه بآية قرآنية وفي ديوان رسائله كتب [1] أشبه بمتون في تاريخ أدب العرب وقد مرشيء من ذلك في البحث عن علمه .

ولكن الذي أريد أن انبه اليه هنا هو الاثر الفارسي في أدبه فالرجل وان غلب عليه أدب العرب وشغفه حبهم حتى عد من

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٤٠ و١٤٨ و١٥١ (مخطوط)

اعلام ادبائهم فقد كان يتقبل القصائد الفارسية التي يمدحه بها الشعراء من الفرس ويجيزهم عليها بل كان يمتحن الادباء الطارئين عليه بتعريب الشعر الفارسي ·

ذكر الاستاذ براون في تاريخ فارس الادبي ج ١ ص ٤٦٣ نقلا عن محمد العوفي صاحب لباب الالباب وجوامع الحكايات ان بديع الزمان الهمذاني لما وفد على الصاحب كان ابن اثنتي عشرة سنة فاراد الصاحب ان يمتحن براعته فامره بتعريب ابيات من الشعر الفارسي لمنصور بن علي المنطقي فسأله البديع عن البحر والروي اللذين يقترحهما فاقترح البحر السريع وروي التاء فعرب البديع تلك الابيات بسرعة غريبة [1] ·

ومهما حاول الصاحب ان يجاري العرب في بلاغتهم واساليبهم فان الروح الفارسية لابد من ان تجد منفذاً تطل منه في شعره ونثره وان كان على الندورة من ذلك تشخيص الجماد وانزاله منزلة العاقل المتكلم كقوله :

أتاني البدر باكياً خجلاً فقلت ماذا دهاك ياقمر

---

(١) لم اجد هذه الابيات في ديوان البديع المطبوع في مصر سنة ١٣٢١

قال غزال أتى ليعزلني بحسنه فالفؤاد منفطر
فقلت قبل ترابه عجلاً واسجد له قال كل ذا غرر
قد بايعت انجم السماء له فليس لي مفزع ولا وزر

ومن ذلك استعمال لعب الفرس كالكرة والصولجان أدوات للتشبيه كقوله :

بعثنا من النارنج ما طاب عرفه فقيل على الاغصان منه نوافج
كرات من العقيان أحكم خرطها وايدي الندامى حولهن صوالج

ومن ذلك قوله وهو بالروح الفارسية اشبه :

لما بدا العارض في الخد زاد الذي ألقى من الوجد
وقلت للعذال يامن رأى بنفسجاً يطلع من ورد

ومن ذلك تعظيم السلطان وتقديسه كقوله :

لو كان للخلق آلهان لكان نحر الدولة الثاني

و كقوله في عضد الدولة :

فوالله لولا الله قال لك الورى مقال النصارى في المسيح بن مريم
ولو قلت ان الله لم يخلق الورى لغيرك لم أحرج ولم أتأثم

وقوله :

اذا أدناك سلطان فزده من التعظيم واحذره وراقب

فما السلطان الا البحر عظما وقرب البحر محذور العواقب

وكقوله من رسالة [1] واذا عزم فقد اوقع ، واذا امر فقد نفذ ، واذا قال فقد ارتسم ، واذا صال فقد انتقم ، ولاة الارض خلفاؤه ، وجنود الاقاليم اولياؤه ، والقدر يخدم امره ، والقضاء يتبع حكمه ، والدهر يمتثل أمره ، والزمان يتقبل أخذه وتركه .... يرتقي مناكب الجبال الرواجح ، حتى يحطها الى بطون الاباطح .

* * *

قلت في اول هذا الفصل ان من يعتبر الادب اعتبار الصاحب يضطر لاستعارة معاني غيره وتكرير المعنى الذي يفتح عليه به والصاحب نفسه يفتي بسرقة المعاني ولا يرى فيها جناحاً قال في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ص ١١ « فاما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام عليها ولكن يعاب ان كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جل المعاني ثم يقول لا اعرفهم ولم اسمع بهم ثم ينشد أشعارهم فيقول هذا شعر عليه اثر التوليد » ولم ينفرد الصاحب بهذا الرأي بل سبقه اليه

(١) المختار من ديوان رسائله ص ٢١٨

الادباء والنقاد المتقدمون قال الآمدي في كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري : « ان من ادركته من اهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين اذ كان هذا باباً ما تعرى منه متقدم ولا متأخر »

واليك بعض المعاني التي اخذها من غيره قال يصف اقلاماً : « وتأنقت في بريها فاتت كمناقير الحمام » وهو عكس قول ذي الرمة :

كأن انوف الطير في عرصاتها خراطيم اقلام تخط وتعجم

وقال: « الصدر يطفح بما جمعه ، وكل اناء مؤدٍ ما اودعه » وهو المثل العربي بنفسه « كل اناء ينضح بما فيه » ببعض تصرف .

وقال في رسالة يعزي بها « دفن يده ببده ، واهدى نفسه لملحده » وهو مأخوذ من قول اعرابي يرثي ابنه :

بني لئن ضنت جفون بمائها لقد قرحت مني عليك جفون
دفنت بكفي بعض نفسي فاصبحت وللنفس منها دافن ودفين

وقوله يعزي أيضاً « وفاح فتيت المسك من مآثره ، كما يفوح من مجامره » ينظر الى قول ابي عبد الرحمن العطوي يرثي احمد بن ابي دواد :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه اصلاب قوم تقصف
وليس نسيم المسك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخلف

وقوله « قد ورث الشرف جامعاً عن جامع ، وشهد له نداء الصوامع » مأخوذ من قول علي بن محمد العلوي :

لقد فاخرتنا من قريش عصابة بمط خدود وامتداد اصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا عليهم بما نهوى نداء الصوامع

وقوله « انت خدين فكري وسميره ، وامين قلبي واميره ، تصرفه كيف احببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الافعال بالاسماء » مأخوذ من قول ابي تمام الطائي في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء

وقال في الخمر « فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرء في السقم ، والنار في الفحم » فالسجعة الاولى مأخوذة من قول ابي نواس في الخمر :

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

والسجعة الثانية من قول بعض شعراء هذيل يصف قانصاً ظفر بصيد بسرعة المشي :

فتمشى لا يحس به كتمشي النار في الضرم

وقال أبو الفضل الميكالي سرق الصاحب قوله :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له يسمح بترياق ريقه

من قول القائل :

لدغت عينك قلبي انما عينك عقرب

لكن المصة من ريـ قك ترياق مجرب

وقال الثعالبي معنى قول الصاحب في الثلج :

وكأن السماء صاهرت الار ض فكان النثار من كافور

ينظر الى قول ابن المعتز :

وكأن الربيع يجلو عروساً وكأنا من قطره في نثار

وقول الصاحب :

يقولون لي كم عهد عينك بالكرى فقلت لهم مذ غاب بدر دجاها

ولو تلتقي عين على غير دمعة لصارمتها حتى يقال نفاها

مأخوذ من قول المهلبي الوزير :

تصارمت الاجفان منذ صرمتني فما تلتقي الا على عبرة تجري

وقول الصاحب :

هات مشطاً اليّ وليك عاجاً فهو ادنى الى مشيب الرؤوس

واذا ما مشطت عاجاً بعـاج فامشط الآبنوس بالآبنوس

مأخوذ من قول ابي عثمان الخالدي :

ورأتني مشطت عاجاً بعـاج فامشط الآبنوس بالآبنوس

واخذ قوله في ابن العميد :

الى سيد لولاه كان زماننا وأبناؤه لفظاً عرياً عن المعنى

من قول المتنبي :

(والدهر لفظ وانت معناه)

وقوله :

فقلت لا تنكر وكن عذيري كم صارم جرّب في خنزير

من قول الحمدوني :

(هبوني امرءاً جربت سيفي على كلب)

وقوله :

والله لا راجعته ولو انه كالشمس أو كالبدر أو كبويه

مأخوذ من قول ابن المعتز :

والله لا كلمته ولو انه كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفي

وعقد الثعالبي في الجزء الاول من يتيمة الدهر فصلا عنوانه « قطعة من حل الصاحب وغيره نظم المتنبي واستعانتهم بالفاظه

ومعانيه في الترسل » جاء فيه مما يتعلق بالصاحب :

فصل له من رسالة في وصف قلعة افتتحها عضد الدولة :

واما قلعة كذا فقد كانت بقيـة الدهر المديد ، والامد البعيد ، تعطس بأنف شامخ من المنعة ، وتنبو بعطف جامح على الخطبة، وترى أن الأيام قد صالحتها على الاعفاء من القوارع، وعاهدتها على التسليم من الحوادث ، فلما أتاح الله للدنيا ابن بجدتها ، وأبا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون ما بين البحور والانهار ، وظنوا الاقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا ان رأوا معقلهم الحصين ومثواهم القديم نهزة الحوادث وفرصة البوابق ، ومجر العوالي ومجرى السوابق .

وانما ألمّ بالفاظ بيتين لأبي الطيب أحدهما :

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكا اليه السهل والجبل

والآخر :

تذكرت ما بين العذيب و بارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

وفصل له : لئن كان الفتح جليل الخطر، حميد الأثر، فان سعادة مولانا لتبشر بشوافع له يعلم معها ان لله اسراراً في علاه لا يزال يبديها ، و يصل اوائلها بتواليها

وهو من قول أبي الطيب :

ولله سر في علاك وانما كلام العدى ضرب من الهذيان

(فصل) ولو كان ما احسنه شظية من قلم كاتب لما غيرت خطه ، او قذى في عين نائم لما انتبه جفنه . وهو من قول ابي الطيب :

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ماغيرت من خط كاتبه

(فصل للصاحب في التعزية) اذا كان الشيخ القدوة في العلم وما يقتضيه ، والاسوة في الدين وما يجب فيه ، لزم ان يتأدب في حالات الصبر والشكر بأدبه ، و يؤخذ في ثارات الأسى والأسى بمذهبه ، فكيف لنا بتعزيته ، عند حادث رزيته ، الا اذا رو ينا له ، بعض ما اخذنا عنه ، واعدنا اليه ، طائفة مما استفدنا منه . وانما هو حل من قول أبي الطيب :

انت يافوق ان يعزى عن الاحـ باب فوق الذي يعزيك عقلا

و بالفاظك اهتدى فاذا عزاك قال الذي له قلت قبلا

(وفصل له) وقد اثنى عليه ثناء لسان الزهر ، على راحة المطر . وهو من قول ابي الطيب :

وذكي رائحة الرياض كلامها تبغي الثناء على الحيا فيفوح

ومن معانيه التي كررها قوله :

انت نذل من كرام انت في الطاوس رجله

كرره فقال :

وان اباك اذ تعزى اليه لكالطاوس يقبح منه رجله

وقوله :

وشادن أصبح فوق الصفة قد ظلم الصب وما انصفه

كم قلت اذ قبل كفي وقد تيمني يا ليت كفي شفه

كرره فقال :

ابا شجاع يا شجاع الورى ومن غدا في حسنه قبله

قبل فمي ان كنت لي موئراً فاليد لا تعرف القبله

وقال أيضاً في هذا المعنى

وشادن جماله تقصر عنه صفتي

اهوى لتقبيل يدي فقلت لا بل شفتي

* * *

تقدم في سيرة الصاحب ان فخر الدولة مزح معه مرة فبدت آثار الكراهة على وجهه فلم يعد بعدها فخر الدولة لمزاحه بل كان

ينتقل من مجلس الانس الى مجلس الحشمة اذا دخل عليه الصاحب . ومع ذلك فقد كان الصاحب يمازح اصحابه الذين ينبسط اليهم ويراسلهم بانواع الهزل والدعابة وربما استرسل بالفكاهة الى حد المجون . فكأنه كان يعتبر الدعابة ضرباً من التهكم والعبث والتنادر لذلك فله أن يمازح غيره (يعبث به و يتنادر عليه و يضحك منه) وليس لاحد ان يمازحه ولو كان سيده فخر الدولة وهذا لون آخر من عجب الصاحب بنفسه وعدم انصافه غيره فقد روى عنه انه كان يعيب التيه و يتيه فانظر كيف كان أيضاً يعيب المزاح ويمزح . قال في احد شعرائه ابي الحسن البديهي :

تقول البيت في خمسين عاماً فلم لقبت نفسك بالبديهي

وقال يداعب بعض اخوانه :

قلبي على الجمرة يا ابا العلا فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الختم عن كيسه وهل كحلت الناظر الا كحلا
انك ان قلت نعم صادقاً ابعث نثاراً يملأ المنزلا
وان تجبني من حياء بلا ابعث اليك القطن والمغزلا

و كتب مداعباً :

خبر سيدي عندي وان كتمه عني، واستأثر به دوني، وقد عرفت خبره البارحة في شر به وانسه، وغناء الضيف الطارق وعرسه، « وكان ما كان مما لست اذكره » وجرى ما جرى مما لست انشره، واقول ان مولاي امتطى الاشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار فكيف شاهد جريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف في سعة ام ضيق، وهل افرد الحجام تمتع بالعمرة، وقال في الحملة بالكرة، ليتفضل بتعريفي الخبر فما ينفعه الانكار، ولا يغني عنه لا الاقرار، وارجو ان يساعدنا الشيخ ابو مرة، كما ساعده مرة؛ فنصلي للقبلة التي صلى اليها، ونتمكن من الدرجة التي خطب عليها، هذا وله فضل السبق الى ذلك الميدان، الكثير الفرسان .

وكان الصاحب مع جلالة قدره وسمو مكانته وتبحره بعلوم الدين ورواية الحديث لا يحجم عن الهجاء الفاحش ولا يتأثم من الاقذاع فيه وقد روى له الثعالبي في يتيمة الدهر اشياء من فاحش الهجاء لا سبيل لنقل شيء منها في مثل هذه الرسالة وجريرة ذلك ليست على الصاحب وحده بل على العصر الذي كان اهله لا يتحرجون من الاقذاع في الهجاء .

شعره

قلّ في ادباء العربية من جمع بين الشعر والنثر وجوّد فيهما . ومع ذلك فلا تكاد تجد عالماً أو ادباً لا يشارك الشعراء في صنعتهم والكتاب بجملتهم يعانون قرض الشعر بين مكثر ومقل ومسهب وموجز .

البواعث التي تغري الكتاب بقول الشعر (عدا الطبع والتظرف والاستزادة من فنون الادب) هي الكسب والوسيلة اذ قد جرت العادة في ادبنا ان يختص الشعر بالمدح والرثاء والهجاء لذلك فقد كان الكاتب اذا انتجع ملكاً او وزيراً او رئيساً قدم بين يدي حاجته قصيدة يمدحه بها تكون ذريعة له ولو لم تكن صنعته الشعر . فلقد روي عن الجاحظ انه مدح بقصيدة واحدة غير واحد من الاعيان لان الجاحظ غير مطبوع على الشعر وكتاب القرن الرابع الذي عاش فيه الصاحب عانوا نظم الشعر واكثروا من قوله كابن العميد وابي بكر الخوارزمي وابي اسحاق الصابي و بديع الزمان الهمذاني الذي خلف لنا مع مقاماته ورسائله ديواناً من الشعر . والصاحب نفسه مكثر من

قول الشعر وله ديوان تقدم الكلام عليه وفي كتب الادب طائفة صالحة من اشعاره يستشهد بها المؤلفون في شتى الفنون وقد مدح الصاحب في اول امره ابن العميد وعضد الدولة وتناول جميع ابواب الشعر المعروفة في عصره فنظم في الادب والحكمة والوصف والغزل والمدح والفخر والرثاء والهجاء والدعابة وهو من احسن الكتاب شعراً ولكن الركن الذي تعتمد عليه منزلته في الادب هو النثر لا الشعر على انه يجود في البيتين وما فوقهما من المقطعات القصيرة حتى يخيل الى السامع ان الصاحب شارك الشعراء في كثير من حسهم وخيالهم ولكنه اذا اطال انقطع دون البلوغ فاستعان بوسائل الصنعة فاراك من انواعها صوراً غريبة فيها كثير من التأنق والتحذلق ولكنها كالجثة المحنطة لم تنفعها زينتها بعد ان فقدت الحياة لذلك لم تسلم له قصيدة .

اسلوب الصاحب في شعره كاسلوبه في نثره من حيث الصنعة والتزويق وربما كانت الصنعة في شعره اكثر كقصائده التي اجتنب في كل واحدة منها حرفاً معيناً من حروف الهجاء ولكن الشعر لم يكن بواتيه بمثل ما يواتيه النثر فكثيراً ما يسمو في انشائه الى منزلة هي في الذروة بين منازل كتاب

عصره أما ابيانه التي جود فيها فلا تحظي من السامع با كثر من الاستملاح والاستطراف وستطلع على أمثلة من شعره في آخر هذه الرسالة ·